

عائلة كوليبالي ودورها في مملكة البمبارا (بين 1600 و1800م)

د. نور الدين شعباني
جامعة خميس مليانة

مقدمة:

إن ندرة المصادر التاريخية المكتوبة جعلت الدراسات الخاصة بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء على قلتها وبخاصة العربية منها تقتصر على الجوانب الاقتصادية وبدرجة أقل الجانب الثقافي، بينما لم يحظ الجانب السياسي إلا بالنزر القليل من الاهتمام، وما كتب في هذا الموضوع اقتصر على تاريخ الإمبراطوريات الكبرى مثل إمبراطورية غانة ومالي وسنغاي، وبعض الممالك النوبية والحبشية المشهورة في السودان الشرقي.

لكن هناك جانب مهم من تاريخ هذه المنطقة لم يتعرض للاهتمام من طرف الباحثين ألا وهو تاريخ العائلات السودانية التي لعبت دورا كبيرا في ظهور بعض الممالك الإفريقية العريقة، بل لعبت دورا كبيرا في رسم معالم الكثير من الدول الوطنية الإفريقية الحديثة، وهو ما جعلني اخصص هذا البحث لدراسة إحدى العائلات المندية الشهيرة وهي عائلة كوليبالي المالية التي كان لفرعها سواء بالنسبة للمتمركز في سيغو أو ذلك الذي استقر في كارتا دور كبير في تأسيس مملكة البمبارا خلال القرن السابع عشر الميلادي.

1. من هم البامبارا:

يعد البمبار من شعوب ماندينغ(1) الشمال وهم المعروفون (بماندي تان) (Mandi-tan). (2) وكلمة "بمبارا" هي تحريف لكلمة "بامانا" وهي التسمية

الأصلية لهذا الشعب، والتي تعني الصخرة ذات النتوءات الحادة، ويعد الأوربيون هم من أطلقوا على هذا الشعب اسم بمبارا(3)، وهو نفس الاسم الذي نجده عند عبد الرحمان السعدي في تاريخ السودان، حيث كان المسلمون يطلقونه على السودان غير المسلمين

وعندما كتب المؤرخ الفرنسي بازين (Bazin) موسوعته سنة 1906م حول البمبارا فإنه أعطى معنا للبمبارا على أساس انه مشق من كلمة (رجال التماسيح) وهو بذلك يؤكد بأن للاسم مصدر طوطمي(4). كما ذكر الجغرافي الفرنسي اليسى روكولوس (Elisée reculus)(5) بأن كلمة بمبارا تعني رجال الصخر الكبير، حيث يقولون بأن موطنهم الأصلي هو الجبال الجنوبية الكبرى، وأنهم لم يسكنوا ضفاف نهر بوخوي إلا عندما اضطرتهم إلى ذلك الحروب.(6).

أما الموطن الأصلي للبمبارا فهو منطقة نهر النيجر عند خطوط طول 8 و10 درجات غرب خط غرينتش، أي يمتد من الضفة اليمنى للنيجر الأعلى وبالضبط من مرتفعات سيغيري (Siguiri) إلى غاية الضفة اليسرى من أعالي منطقة باغي (Bagbé)⁽⁷⁾ التي تبدأ منها أراضي شعب السينوفو(وهم فرع من المندينغ)، وبهذا فإن موطنهم يضم أيضا نهر باولي (Baoulé) وإقليم واسولو (Ouassoulo) من الجنوب(8).

وهناك روايات شفوية تذهب إلى أن الموطن الأصلي للبمبارا هو منطقة تورو التي تعد من الإمارات الشرقية لإقليم وايولو التابع لكوت ديفوار الحالية، وبالتالي فيبدو أن الموطن الأصلي للبمبارا هو أقصى الجنوب الشرقي الذي يعد المهد الأول لكل العائلات المندية، وقد تمتد مجالاتهم إلى غاية المجرى الأسفل لنهر السنغال، وبذلك فإن أراضيهم تشكل مثلثا قاعدته إلى الشمال وزاويته إلى الجنوب(9). ويعد البمبارا سودانا حقيقيون ذوي بشرة

شديدة السواد وشعر متصوف، وذوي أجسام قوية⁽¹⁰⁾، بينما يتميز البعض الآخر منهم وهم من البمبارا المولدين ببشرة أقل سمرة، وشعر أقل تصوفاً عن غيرهم من الزوج، وتكسو ذقون البمبارا عموماً لحية كثيفة، ولهم قامة متوسطة لكنهم أقوىاء جداً، وتبقى قبيلة كورباريس (Kourbaris)⁽¹¹⁾ تمثل النموذج البمباري الحقيقي الذي لم يختلط بأقوام أخرى⁽¹²⁾.

ومن صفات البمبارا التي اشتهروا بها قلة تحضرهم وميلهم إلى التوحش، وهذا بسبب انعزالهم وعدم تعاملهم مع الأجانب، بالإضافة إلى قوة بأسهم وشدتهم التي جعلت منهم أقواماً محاربين فيما بينهم على الدوام كما يتعاطون النهب والفتك والسرقة، ويتحارب البمبارا بالنبال التي يتقنها رجالهم ونسأؤهم على حد سواء⁽¹³⁾. ويتكلم البمبارا لغة قريبة من لهجات كل من الديولا والخاصونكي والمالنكي، التي تنتمي إلى اللغة المندية، لكنها تختلف كثيراً عن لغات الصوصو والسوننكي وبدرجة أكثر لغة الفلاتة⁽¹⁴⁾.

أما بخصوص أصل هذا الشعب فإن الروايات الشفوية المحلية التي ترويها عشيرة كوليبالي البمبارية تذهب إلى أن جدهم الأكبر الذي يدعى تينينغي نكالين تينينغي (Tyennégé Nkalanin Tyénnégé) هو أول من قام بإصلاح الغابة في منطقة سانانكوروبا (Sanankoroba)⁽¹⁵⁾ وأسس قرية صغيرة سكنها هو وعائلته الصغيرة ثم سرعان ما بدأت هذه القرية تكبر شيئاً فشيئاً وكبر معها أبنائه وأحفاده⁽¹⁶⁾.

كما روى لنا موريس دولافوس رواية شفوية مفادها أنه في وقت مبكر من التاريخ قاد أخوان من البمبارا واحد اسمه (نيانغولو) والآخر اسمه (برامانغولو) جماعة كبيرة من المهاجرين البمبارا الفارين من متابعة عدو كان يلاحقهم⁽¹⁷⁾، ولما وصلوا إلى الضفة اليمنى لنهر باولي⁽¹⁸⁾ فشلوا في عبور النهر بسبب عدم وجود قوارب، ومن هذه الواقعة اتخذ أحفادهم اسم

كوليبالي والتي تعني بلغتهم (بدون قوارب)، وهنا ظهر حوت كبير وحملهم على ظهره وأخذهم إلى الضفة الأخرى إلى نهر باولي. فاستقر الإخوان في المنطقة المتواجدة بين نهري باولي والنيجر وخلفوا أبناء مكونين ما يعرف بعشيرة كوليبالي البامانية.⁽¹⁹⁾

2. ظهور عائلة كوليبالي وتأسيسها لامبراطورية البامانا:

من خلال الروايات الشفوية وبغض النظر عن الجانب الاسطوري الذي يطغى عليها إلا أننا يمكن أن نستنتج بأن عائلة كوليبالي تعد أول عشيرة بامانية وصلت إلى منطقة النيجر الأعلى، وهو ما سمح لها بتزعم هذا الشعب وقيادته وإقامة أول نموذج للدولة البمانية.

وتحاول الروايات الشفوية الخاصة بمنطقة سيغو (Ségou)⁽²⁰⁾ ربط عائلة كوليبالي بعائلة كايتا المشهورة المؤسسة لإمبراطورية مالي الإسلامية، حيث تذهب إلى أن الجد الأكبر لعائلة كوليبالي ومؤسسها يدعى ماسا كولو (Massa koulou) وهو شقيق ماسا كيتا جد آل كيتا⁽²¹⁾. لكننا نرى بأن هذا الادعاء باطل، حيث يبدو أن الاسم الذي ينتهي به مؤسس عائلة كوليبالي هو كولو أو نغولو يكون قد أضيف له ماسا لكي يصبح شبيها بأسماء عائلة كيتا الذين كانوا يضيفون لأسمائهم كلمة ماسا أو منسا والتي تعني الملك.

ونشير إلى أن محاولة ربط النسب بعائلات كيتا لم يقتصر على آل كوليبالي فقط بل نجده عند عدد كبير من العائلات والبيوتات في غرب إفريقيا وهذا نظرا لشهرة عائلة كيتا ومكانتها في السودان الغربي. كما أن أغلب الروايات الشفوية تقول بأن أصل البامانا هو من منطقة كونغ في الجنوب (في جمهورية كوت ديفوار الحالية) وأنهم هاجرو باتجاه نهر النيجر بعدما هربوا من هجمات الواسولو والديولا،⁽²²⁾ بينما نعرف بأن مضارب عائلة كيتا هي في منطقة كنغابا في الشمال.

ومهما يكن فإن الروايات الشفوية تذكر بأن مهد الكوليبالي القادمين من مندن(مالي) هو منطقة بندوغو نيامانا(Bendougou-niamana) ومنها كان تفرقهم ووانتشارهم حيث ذهب فريق منهم ليستقر في سوغولون شوالا (Sogolon-choila) قرب مدينة نيونو الحالية، واتجه فرع آخر الى سيغو وخاصة في قرى توكورو، ديابان وماسالا.(23)

وفي حوالي سنة 1600م استقر أحد أحفاد برانغولو الذي يدعى كالاديان كولوبالي (Kladian kolobali) في الضفة اليسرى لنهر النيجر في منطقة ماركادوغوبا (Markadougouba) ليس بعيدا عن مدينة سيغو(Ségu)، ولقد حاول أن يؤسس قاعدة لمملكة بامانية مستقلة، لكنه توفي دون أن يحقق هذا الحلم، بعد ذلك غادر ابنه دان فاساري (Dan fassari) ماركادوغوبا بينما بقي ابنه الآخر وهو نوتيبي (Notémé) حيث خلف أباه على رأس عرش كوليبالي، وبعد مغادرته ماركادوغوبا توجه دان فاسيري في سنة 1620م على رأس جيش إلى قرية تقع قبالة ماركادوغوبا وهي قرية كان قد أسسها أحد المسلمين السوننكي والذي كان يدعى سيكو والتي تعني شيخو أو الشيخ، لذلك سميت هذه القرية سيكو(سيغو) نسبة إلى مؤسسها.(24) وهي قرية قرب النهر كان يسكنها الصيادون من البوزو والسومونو قبل أن يلجأ إليها السوننكي الفارين من واغادو.(25)

وكان لدان فاسيري ابن خلفه على العرش من بعده يدعى سوما (souma) حيث نجح هذا الأخير حوالي سنة 1645م في توسيع سلطته على كل القرى التي يسكنها البامانا المتواجدون في مثلث(سيكو- بارويلي - كارو segou-barouéli-garo) ثم تزوج من أميرة من نيامينا(قرب نهر باني) تدعى سونو ساكو (sounou Sacko) انجبت له ولدين هما ماماري فوتيغي (Mamari fotigué) المدعو (بيتون Biton) والآخر يدعى سينيل(Senible)، وكانت له

أيضا بنت جميلة جدا تسمى سانامبا (Sanamba) التي تزوجت من زعيم قبيلة دينا وهو وارا ديار (Wara diara) الذي كان قويا في ذلك الوقت⁽²⁶⁾، ولما توفي سوما كوليبالي سنة 1670م خلفه ابنه بيتون كوليبالي الذي قام ببناء حصن بيسيغو جاعلا منه مقر إمبراطورية البامانا، وبذلك اعتبر بيتون المؤسس الحقيقي لامبراطورية سيكو⁽²⁷⁾.

3. بيتون كوليبالي ودوره في بناء إمبراطورية

لقد اكتسب بيتون كوليبالي شهرة واسعة في أوساط البامبارا خصوصا وفي السودان الغربي عموما إلى درجة جعلت الرواة الشفويون⁽²⁸⁾ يضيفون على شخصيته الكثير من الجوانب الأسطورية في محاولة منها لتصويره بالإنسان غير العادي. حيث يروى عن مولده بأن أمه بعدما تزوجها سوما كوليبالي بقيت عقيمة لمدة عشرين سنة قبل أن تتجب ولدها البكر فوتيغي الذي أصبح يلقب فيما بعد معماري بيتون (Mamari Biton)، ولقد اشتق هذا الاسم من صرخة الفرحة التي أطلقتها أمه لحظة ولادته إذ صرخت قائلة: بيت وينو بيل (Bit oino belé) ومعناها (رغم قلة السنين التي بقيت لي) وهي إشارة إلى ولادته في سن متأخرة من عمرها.⁽²⁹⁾ أما تلقيبه بمعماري والذي يعني (المُعتمَر) فهو بسبب تأديته للعمرة إلى البقاع المقدسة، لكننا نجد الروايات الشفوية الوثنية تنفي أدائه للعمرة وتقول بأن هذا الاسم أعطي لأمه التي أدت هذه الشعيرة الإسلامية وزارت مكة برفقة إمام قرية ماركادوغوبا أما هو فلم يكن مسلما.⁽³⁰⁾

كما رويت أساطير حول طريقة توليه زعامة عشيرة آل تراوري حيث تقول هذه الروايات بأنه عندما كان يذهب إلى القرى المجاورة لسيغو من أجل التنافس مع أقرانه الصيادين كانت القرعة توقعه دائما رئيسا عليهم رغم أنه كان غريبا عنهم وهو ما مهّد له الطريق لأن يصبح ملكا عليهم عندما

يكبر، وتزعم الروايات الشفوية بأن هذا كله كان يحدث بمساعدة جني يسمى فارو. (31)

وعموما فإن الروايات الشفوية تضيف بأن بيتون ماماري كوليبالي كان قبل توليه الحكم صيادا ماهرا كثيرا ما كان يجتاز ضفاف نهري باني والنيجر بحثا عن الصيد، وعندما وصل إلى سيكورو وأقام بها بضعة أيام جلب إليه انتباه سكانها بفضل حسن سلوكه وفطنته، ولما كانت أخته متزوجة من زعيم هذه الإمارة فقد ساعدت أخاها بيتون ماماري على اكتشاف سر وسبب قوة هذا الزعيم والمتمثل في تناوله كل ليلة لوجبة مكونة من رأس الماعز الذي يعد الأكلة المفضلة للأسد. لذلك قرر بيتون تناول نفس الوجبة يوميا وهو ما أكسبه قوة الأسد وحماه من الجن المنتشرين في الغابة حسب مزاعم الروايات الشفوية. (32)

وبعيدا عن الجانب الأسطوري لهذه الروايات فإنها بينت لنا البدايات الأولى لبيتون ماماري وتزعمه المبكر لانداده من البمبارا، ما ان هذه الروايات تذهب إلى أن كانت مملكة سيغو قبل أن يتولى شؤونها بيتون مجرد مملكة صغيرة أشبه ما تكون بالقرية أو القبيلة ذات نظام قبلي عشائري بسيط جدا، لكن منذ أن اعتلى عرشها هذا الزعيم الشاب حتى بدأت تشق طريقها في التنظيم والتطور حتى أصبحت إمبراطورية واسعة ومنظمة بفضل المجهودات التي بذلها.

أولا: تنظيم هياكل الدولة:

أ. جمعية الفئات العمرية:

ما إن تولى بيتون كوليبالي شؤون الحكم في سيغو حتى أعطي له لقب فاما (Fama) وتعني الملك القوي، قم بدأ بتنظيم أسس الدولة، حيث قام بإشراك زملائه في جمعية الشباب الصيادين في هذا التنظيم الذي سماه

جمعية الفئة العمرية أو فلانتون ديون (Flanton dyon) أو تون (Ton) وهي جمعية قادة القرى المجاورة وهي بمثابة جمعية رؤساء المقاطعات أو الولايات، تتكون من زملائه في تربص الرجولة والصيد⁽³³⁾ الذي كان ينظم عند البمبارا بالنسبة لفئة الشباب، والذي كان ينتهي بعملية الاختتان الجماعي واضعا بذلك حدا لفترة الطفولة والدخول في مرحلة الرشد والرجولة، وكانت كل دفعة من الأنداد تعرف بفلامبولو (Flambolo) وكل ثلاث فلامبولو تشكل فلانتون.⁽³⁴⁾ كما ضمت الجمعية فئات أخرى من أسرى الحروب وفئة المنحطين، حيث تتميز هذه الجمعية بالمساواة المطلقة بين جميع فئات المجتمع على خلاف نظام المشيخات العشائرية.⁽³⁵⁾ ويرأس هذه الجمعية زعيم يعرف بتونتيجي (Tontigui) وتعني مالك المياه (مياه نهر النيجر) بفضل سيطرته على الملاحة النهرية، وكان ينتخب الرئيس من طرف أعضاء الجمعية ويمكن أن يكون من طبقة النبلاء أو من طبقة الأسرى.⁽³⁶⁾

ولكن مع مرور الوقت انضم الى هذه الجمعية او الرابطة عدد كبير من الاسرى والمحكوم عليهم وبالتالي لم تعد تلقب بجمعية الانداد أو رابطة الأنداد وإنما رابطة اسرى الحقل الكبير، وانظم الاسرى ايضا الى فرق دينية يرأسها بيتون ماماري نفسه، كما كلف هذا الأخير فرقا من الرابطة لمراقبة اقربائه. ويبدو أن بيتون حاول أيضا تدعيم دور الاسرى والعبيد في الرابطة من أجل الاستحواذ على مركز السلطة حيث أصبح يختار قائد الرابطة ليس من اعضائها وإنما من بين العبيد التابعين له شخصيا، كما سن قانون يقضي بحفاظ العضو على عضويته في الرابطة مدى الحياة، وأن يصبح اولاده بعد ذلك أعضاء أيضا.⁽³⁷⁾

ب. المجلس الاستشاري:

لقد أحاط الملك بيتون كوليبالي نفسه بمجلس استشاري مكون من أربعين عضوا من المحاربين ورجال الدين والنبلاء حيث يبائعونه ضمن طقوس يؤدونها على جزيرة في نهر النيجر، وكان يترأسه الملك بيتون نفسه، وعند افتتاح كل مجلس كان الملك يصرح قائلا: ((فليمنحنا الله التفكير السليم وليخرج منا تصرفا حكيما.)) كما أن المجلس كان يذكر الملك بعبارة : ((لا أحد يصبح إلها)).⁽³⁹⁾ وهو ما يبين درجة الرقابة التي كان يفرضها هذا المجلس على الملك أو ما يعرف في وقتنا الحالي بالفصل بين السلطات.

ج. تنظيم الجيش:

عمل بيتون كوليبالي على تأسيس آلة حربية مكونة من جيش محترف أصبح مع مرور الوقت أقوى جيش في السودان الغربي كله فكان يدعى هذا الجيش بقوة سيغو. فلقد كان جيشا بمباريا أصيلا مكون من الفلاحين النبلاء ومن أسرى الحروب بالإضافة إلى قدماء المساجين الذين سجنوا بسبب عدم دفعهم للضرائب لكن انخرطهم في الجيش كان يسمح لهم بالحصول على العفو وإعادة اندماجهم في المجتمع من جديد.⁽³⁸⁾ وكان جيش سيغو يحظى بانضمام كل فئات المجتمع وكان الشباب ينجذبون إلى هذا الجيش لأنه يسمح لهم بتكوين الثروة حيث كان أفراد هذا الجيش في وقت السلم يشتغلون في الزراعة بينما أثناء الحروب فكانوا يتقاضون أجورهم من الغنائم التي كانوا يجنونها من نهب القرى، وتشمل هذه الغنائم التي كانت توزع حسب الرتب العسكرية⁽³⁹⁾ قطعان الأغنام والماشية بالإضافة إلى المحاصيل الزراعية. وعند عودة الجيش إلى سيغو كان يتم تقسيمه إلى كتائب تعرف بـ (أيادي الحرب) وهي عبارة عن كتائب مكونة من 500 أو 1000 رجل ذلك أن جيش سيغو كان يتكون من حوالي مائة ألف رجل.⁽⁴⁰⁾

لكن ما إن انقضت سنة 1739م حتى بدأت فترة سيطرة بيتون كوليبالي على سيغو تتلاشى بسبب تعرض مملكته لغزو الديولا⁽⁴¹⁾ القادمين من مدينة كونغ بقيادة فاماغان واتارا، وظل وجود الديولا في سيغو الى غاية سنة 1745م، حيث لم ينسحبوا منها إلا عند تلقيهم نبا وفاة ملكهم في كونغ سيكو واتارا.⁽⁴²⁾

بعد ذلك عرفت مملكة آل كوليبالي ضعفا ووهنا بسبب إنهاك مجهودات بيتون مماري في دعم مملكته والتخلص من منافسة أبناء عمومته الماساسي الذين استقروا في منطقة مورديا شمال غرب سيغو، حيث حاربهم بين سنتي 1753 و1754م ودمر عاصمتهم سونسانا وأسر زعيمهم فولاكورو الذي قُتل في سيغو لذلك رحل الماساسي إلى كارتا حيث فرضوا سيطرتهم عليها بقيادة سييامانا سنة 1754م.⁽⁴³⁾

إمبراطورية كوليبالي في الكارتا (أو الماساسي) 1670-1854م

لقد رأينا كيف أن عائلة كوليبالي عند بداية تشكلها في المنطقة بين باني والنيجر قد انقسمت إلى مجموعتين، حيث أسس أحفاد برمنغولو فرع خاص بالابن الأصغر وسيطروا على الحكم بحكم أن جدهم هو أول من وضع رجله على الضفة اليسرى لنهر باني، بينما قام أحفاد نيانغولو (أو الماساسي Massasi) وهو الابن الأكبر بتأسيس فرع خاص بهم. ولكن عندما اخذ بيتون ماماري يستغل السلطة من أجل الاستبداد وقمع أبناء عمومته ثار الماساسي (أحفاد نيانغولو) وعبروا نهر النيجر متجهين نحو الشمال الغربي واستقروا في إمارة نيامالا الواقعة على الحدود الشرقية لمنطقة كارتا، وهنا بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث وكان ذلك حوالي سنة 1670م، وقد تزعم هذا الفرع شقيقان من أحفاد نيانغولو وهما زيي (Zié) وسرحابا (Sarhaba) أو سا (Sa) والمشهور باسم سونسا (Sounsa)، وبينما توفي زيي عند بداية الهجرة

فإن أخاه سونسا استقر قرب مرديا (Mordia) وأسس قرية سماها سونتنيان (sountian) التي تحولت إلى أول عاصمة المملكة الثانية للبمبارا وهي الفرع الثاني لكوليبالي المعروفين بالماساسي.⁽⁴⁴⁾

بعد ذلك بدأ سونسا بتوسيع نفوذه باتجاه الغرب شيئا فشيئا فأخضع الماندينغ والفلاتة وحتى السوننكي المتواجدين في كل من مناطق فولادوغو، الكارتا، غنغاران والبمبوك وكل البلاد التي كانت تابعة لإمبراطورية مالي وبالتالي أصبح يقلق حتى أبناء عمومته في سيغو.⁽⁴⁵⁾ وقد حولت الروايات الشفوية للبمبارا سونسا إلى بطل أسطوري بل وتبالغ في وصفه على أنه رجل خارق للعادة وتتسب له الكثير من الحكايات من بينها أنه خلف بعد وفاته ست وسبعين (76) ولدا⁽⁴⁶⁾.

وعموما فقد خلفه من بعده أحد أبنائه وأكبرهم وهو ممفا (Memfa) الذي حكم لمدة عشر سنوات أي من 1660 إلى 1670م ليخلف هذا الأخير أخوه فوليكورو (foulikoro) أو دوافولاكورو (Douafoulakoro)⁽⁴⁷⁾ الذي حكم بين 1700 و1709م، الذي تحكي الروايات بشأنه أنه قام في إحدى المرات خلال إحدى غزواته بالقرب من نهر النيجر باختطاف ابنة الإمبراطور بيتون فغضب هذا الأخير وبعث إلى فولاكورو ألبسة مسحورة، بحيث شلت حركته بمجرد أن لبسها، وبالتالي تمكن بيتون من محاصرة مدينته سونتنيان (sountian) والسيطرة عليها قبل أن يلقي القبض على فولاكورو ويأخذه إلى مدينة سيغو أين قطعه إربا واحتفظ برأسه ليجعل منه إحدى الطلاسم السحرية للإمبراطورية. في حين أن أبا فولاكورو وهو سيي (sié) الذي يدعى سيبي بامانا (sié - bamana) تمكن من الفرار من سونتنيان في الوقت الذي تم احتلالها من طرف بيتون ولجا إلى مدينو فولادوغو (fouladougou) وهناك لحقت به بقايا جيش الماساسي.⁽⁴⁸⁾

ولقد ساد حكم سيي هناك من 1709 إلى غاية 1760 حيث تمكن من جمع عدد مهم من الجنود ثم غادر فولادوغو وتوجه نحو الشمال، ولما وصل إلى منطقة ديانغونتي (diangounté) سمح له حاكم دياوارا بأن يجعلها مقرا لإقامته فأسس بها قرية سماها كيمو (guémou) وجعلها عاصمة لمملكة الكارتا (49).

بدأ سيي يعمل على تطوير مملكته الجديدة مستغلا الظروف المحيطة به في المنطقة إلى أن منحه حاكم دياوارا الفرصة عندما طلب منه المساعد من أجل التصدي لتحالف دابورا (dabora) (50) وعرب الصحراء من أولاد مبارك اللذان أصبحا يشكلان خطرا على دولته، فأراد سيي استغلال هذه الفرصة لتوسيع مملكته وزيادة عدد زوجاته وأولاده وعبيده من غنائم هذه الحرب (51).

بعد وفاة سي بامانا خلفه أخوه الأصغر دنيмба بو (dénimba-bo) ولم يخلفه ابنه رغم أنه كان له ولد يدعى بونودان (bonodain) (52)، ولقد حكم دنيмба ————— بو من 1760 إلى 1780م قام خلال فترة حكمه بالهجوم على الباكونو (Bakounou) ودمرها، كما دمر كل من ديامبوكو وخاسو وجزء من بامبوك، كما حاصر مدينة كونياكاري (koniakari) (53) التي كانت عاصمة لملك خاسو دمبا سيغا (Demba Séga) (54).

وتقول الروايات الشفوية للبامانا أن أحد العرافين قال بأن البامانا لن يتمتعوا بالاستقرار في كونياكاري طالما الملك دنيмба على قيد الحياة، ولما كان ملك الكارتا الجديد دنيмба رجلا محبا لشعبه ومخلصا له، حيث كان مستعدا للتضحية بنفسه من أجل أن يسود البامانا، لذلك ففي إحدى الحملات التي قام بها أبناء دمبا سيغا قام هذا الملك بتقديم نفسه إليهم فقتلوه، وكان يسعى بذلك إلى التضحية بنفسه من أجل أن يسود شعبه في كونياكاري حسب

زعم المنجم. لكن يبدو بأن تضحياته كانت هباء، فلقد أصاب جيشه الذهول والإحباط لما سمع بمقتل ملكهم وهو ما جعل الحصار على كونياكاري يفشل بانسحاب الجيش.⁽⁵⁵⁾

والجدير بالذكر أنه بعد وفاة دنمبا خلفه أخوه الخامس سيرابو (sérabo) الذي حكم بين 1780 و 1789م، وكان أول شيء قام به هو تأسيس جيش من الجنود ذوي الارادة القوية الذي أسس قرية سماها غيمو (Guémou) وذلك تخليدا لمقر حكم أسلافه السابقين⁽⁵⁶⁾ ولم يكن يسكن القرية في البداية إلا ستون فارسا فقط ثم بدأ حربه من أجل استرجاع سيطرة فرع الماساسي من آل كوليبالي على البامانا، حيث استولى على مدينة كيتا التي انتزعها من الماندينغ، وغزا جزء من بليدوغو (Bélédougou) واستولى على غيدومي (guidioumé) وأعلن الحرب مرة أخرى على زعيم الخاسو دمبا سيغا واستطاع الاستيلاء على كونياكاري مرة أخرى مستغلا الخلافات الداخلية لعائلة دمبا (Demba)⁽⁵⁷⁾.

وخلف سيرابو بعد وفاته أخوه داسي كور (Daissé coro)⁽⁵⁸⁾ الذي يكون قد اعتلى عرش الماساسي سنة 1789م أو 1790م، وقد اتخذ هذا الملك بدوره غيدومي مقرا لحكمه، ودخل في حرب مع الملك ماسونغ⁽⁵⁹⁾ وهو ملك البامانا بسيغو فاندلعت الحرب بين فرعي الكوليبالي بسيغو والكارتا حيث شهدت هذه الحرب دمارا وقتلا واستعبادا للأبناء العمومة لبعضهم البعض، إلى درجة أن الملك داسي كورو وبعد انهزامه أمام ماسونغ وأثناء هروبه من سيغو تعرض للاستعباد وقام سيده بتشويه وجهه حتى لا يتم التعرف عليه قبل أن يتمكن من الهروب بعد ذلك والعودة إلى العرش. وفي الأخير عاد الصلح بين فرعي البامانا وأبناء العمومة في كل من سيغو وكرتا سنة 1826 في عهد الملك دا (Da) ابن ماسونغ.⁽⁶⁰⁾

و رغم فترة الصراع التي عرفها فرع الماساسي من عائلة كوليبالي في الكارتا إلا أنها ساهمت بدورها في بناء دولة للبامانا من خلال التنظيمات والمجهودات المبذولة في مختلف مجالات الدولة، فلقت كانت مملكة البمبارا في الكارتا حسب شهادة مونغو بارك الذي زارها في عهد ملكها داسي تضم جيشا منظما يتشكل من الفرسان والمشاة والرماة، بالإضافة إلى وجود ما يعرف بوحدة القوات الخاصة التي تتكفل بالمهام الدقيقة. كما انتشر الإسلام بصورة واضحة في مملكة الكارتا، حيث يذكر مونغو بارك بأنه رغم الطابع الوثني للبمبارا إلا أن المساجد المنتشرة في مدينة كارتا كانت تعرف ارتيادا كبيرا لسكان المدينة وأن نصف جيش البمبارا بكارتا كانوا مسلمين وذلك يعود الى تلك الحرية التي كان يتمتع بها الدعاة والفقهاء الفلاته في نشرهم للإسلام في وسط بمبارا منطقة الكارتا، حيث تمكن هؤلاء الرعاة من الفلاته من تأسيس عدة مدن في بلاد المندينغ كانت بمثابة النواة الأولى لانتشار الإسلام عند البمبارا، ومن هذه المدن التي ذكرها مونغو بارك مدينة تيسي (Tiesie)⁽⁶¹⁾.

بالرغم من أن النظام الإداري في الكارتا كان اقل تطورا من سيغو وحتى الحياة التنظيمية لم ترق إلى ما قام به بنتو ماماري في سيغو لكن مملكة كوليبالي في سيغو تميزت بنظام ضريبي دقيق وصارم كما أقام ملوكها العدالة بين مختلف سكانها وعرف البامانا في كنف هذه الدولة رخاء اقتصاديا رغم الحروب التي لم تتوقف مع جيرانهم وأبناء عمومته في سيغو.⁽⁶²⁾

خاتمة:

عموما فإن البامانا يبقى من الشعوب التي لم تحظى بالكثير من الإنصاف من طرف المؤرخين الذين ضلت كتابتهم عنهم في أحسن الأحوال تكتفي بذكر ما نقلته بعض الروايات الشفوية التي ذكرها رواة أعدائهم من الملنكي أو الرحالة العرب والأوربيين الذين كانت نظرتهم إليهم فوقية وسطحية، بالإضافة إلى كثرت الحروب التي شهدها هذا الشعب بسبب رفضه للسيطرة الأجنبية فصورتهم على أساس أنهم أقوام بدائية شرسة متناحرة لا تعرف حضارة لا عمران.

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة تمكنا من كشف بعض الجوانب الحضارية عن البامانا التي جسدتها إحدى عائلاتها المشهورة وهي عائلة كوليبالي بفرعيها والتي رغم صراعاتها غير المتناهية إلا إن ذلك لم يثنيها عن الاضطلاع بمسؤولية تأسيس الدولة وتنظيماتها. وبالتالي فما روج عن هذا الشعب من توحش وقلة حضارة كان نتيجة جهل وقلة معرفة بتاريخه.

⁽¹⁾ ماندينغ (Mandingue) ويطلق عليهم أيضا اسم "ماندي"، و"ماندينكا"، ويشكل الماندينغ القسم الأساسي لشعوب المجرى الأعلى لثلاثة أكبر الأنهار في إفريقيا الغربية وهي السنغال، غمبيا والنيجر، كما ينتشرون في كل منطقة السودان الغربي، وفي جنوب السنغال، وفي النيجر الأعلى انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي إلى غاية جمهورية نيجريا الحالية وإذا ما أردنا تحديد مجالات شعب الماندينغ جغرافيا فإننا نقول بأنه يحدها من الغرب مرتفعات فوتا جالون، ومن الجنوب تحدها غابات جنوب غينيا، ومن الشرق والشمال تحدها غابات السفانا السودانية.

حول شعب المندينغ انظر:

-Sik (andre) , Histoire de l'Afrique noire Budapest. , (Hongrie, 1962 ,2eme édition, tome 1, p48. ; Niane (Temsir djibril) , Mise en place des populations de la haute guinée. In Revue éthiopique, (N°02, Avril, 1960, p40).

(²) Niane (Djibril Tamsir), Mise en place des populations de la haute Guinée, Mise en place des populations de la Haute-Guinée, in revue : Recherches africaines, Conakry. No. 2, avril. 1960. p. 40-53.

(³) Pâques (Viviana) : Les Bambara Éditions l'Harmattan, (Paris, 2005, p17) ; L'épopée Bambara de Ségou, Recueillie et traduite par : Lyliane Kesteloot, avec la collaboration d'Amadou Traoré et Jean-Baptiste Traoré, édition orizons, Paris, 2010 , p8.

(⁴) Paquet(Vivian) : OpCit, p1 .

(⁵) عاش بين 1830م و1905م من المناضلين المعروفين بالفوضويين. :هو جغرافي ومفكر فرنسي, Elisée Reclus,

(⁶) Elisée(Reclus) :Nouvelle géographie universelle :La terre et les hommes. Librairie Hachette, Paris, 1887, tome12, p542.

(⁷) (Kissidougou).وهي منطقة تقع جنوب غرب جمهورية غينيا الحالية وتنتمي إلى

إقليم كيسيدوغو

(⁸) Abel (Hovelaque) ,Op.Cit, p160

(⁹) Delafosse (Maurice): Haut Sénégal-Niger, Emile la rose librairie - éditeur, Paris,1912,Tome1, p283.

(¹⁰) Elisée (Reclus) :Op.Cit. p543.

(¹¹) كورباريس هم من اقدم المندينغ في غرب إفريقيا وهم فرع من البمبارا وينتسبون الى كوربي وهو احد البامانا الذي ينتمي الى عائلة كوليبالي والذي انتقل بعشيرته إلى كارتا حيث سيقمون دولتهم هناك. Paques (Viviana) :Op.Cit, p5

(¹²) Abel (Hovelaque), Op.cit., p160

(¹³) مارمول (كربال),المصدر السابق، ص52

(¹⁴) Pâques (Viviana),Op.Cit, p14. ; Elisée(Reclus),Op.Cit, p543

(¹⁵) هي الآن بلدية صغيرة في إقليم كيلوكورو بجنوب مالي، وتقع على بعد 34 كلم جنوب العاصمة باماكو.

(¹⁶) (B.Traoré de Sirindururu(Tradition orale des Trawele),recueilli en fin Mars 1975,a bamako,in site :<http://www.bambara.org/index.php?option=com>

(17) يمكن أن يكون هذا العدو هم الماركا أو ذلك لسبيين أولا لان لبامانا خضعوا لهم لمدة من الزمن قبل أن يتمردوا عليهم في ثورة شبيهة بثورة الفلاحين على الإقطاعيين(م.أبيتبول: نهاية إمبراطورية سنغاي. ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، الجزء الخامس، الخاص بتاريخ إفريقيا من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر، إشراف: ب.أ.أوغوث، اليونسكو، مطبعة درغام واولاده، بيروت، لبنان، 1997م، ص356). واليبب الثاني يكونوا قد تعرضوا لمطاردة تجارة العبيد وهم الماركا حيث ظهر البمبارا ضمن قائمة اسماء المجموعات المعنية بالاسترقاق من طرف تجار العبيد من الماركا. (إيزار م ج وكي زيربو: من النيجر الى الفولتا: ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، ج5، 371).

(18) باولي Baoulé : هو نهر من الأنهار المتفرعة عن السنغال، إذ يتفرع من نهر باخوي الذي يعد هو الآخر أحد فروع السنغال. وينسب إليه شعب باولي الذي يقطن مناطق باولي، ياموسوكرو، دياميوكرو، بيوسي، ساكاسو وغيرها الموجودة في وسط كوت ديفوار الحالية.

(19) (Delafosse(Maurice),Op.Cit ,pp285 et 286.

(20) سيغو مدينة وبلدية في جنوب مالي شمال شرق العاصمة باماكو. تم إنشائها من قبل شعب بوزو في سنة 1620. تبعد عن العاصمة باماكو ب240 كلم.

(21) :Recueillie et traduite par :Liliane Kesteloot avec la collaboration d'Amadou traouré et Jean-Batiste Traouré, !!editions Orizons , Paris ,2010,p8.

(22) Lilyane Kesteloot et Bassirou Dieng, Les Epopées d'Afrique noire, Editions Karthala et UNESCO, 2009, p159.

(23) Bakary diarra, N'yola N'golo diarra. Fondateur du royaume dynastique de Ségou-Sikoro. L'armattan , Paris, 2001, p40.

(24) (Delafosse(Maurice),Op.Cit,p 286.

(25) Coulibaly Amadou Bina, Op.Cit.

(26) Bakary diarra, Op.Cit ,p39.

(27) Delafosse(Maurice), Haut Sénégal- Niiger, tome2, p283 ; Coulibaly Amadou Bina, Op.Cit

(28) تعد الروايات الشفوية من أهم مصادر تاريخ السودان الغربي حيث تحتفظ بهذه الروايات طائفة في المجتمعات السودانية تعرف بالقريو (les griots) أو الجيلي (jely) وتنظم هذه الروايات في شكل ملاحم شعرية وأناشيد تخلد انجازات زعماء العائلات الكبيرة، لكن تتخللها الكثير من المبالغات ولا تخلو من الجوانب الأسطورية.

(²⁹) L'épopée Bambara de ségou :Op.Cit,p8.

(³⁰) (Loc .Cit ,p8.

(³¹) Lilyane Kesteloot et Bassirou Dieng,Op.Cit,p160.

كانت عند البمبارا جمعيات للشباب تنظم من خلالها دورات للصيد والتدريب على القتال خارج القرية وفي آخر هذه المنافسة يعلن عن بلوغ هؤلاء الأطفال سن الرجولة ويتم اختنانتهم بطريقة جماعية.

(³²) Ibid, p161.

(33) كان الماندينغ في غرب إفريقيا وخاصة بالنسبة للمالنكي والبمبارا والديولا، ومندينغ منطقة سنيغمبيا ينظمون تربصات خاصة للشباب البالغين سن الرشد بإرسالهم إلى أدغال الغابة للتدريب على الصيد وفنون القتال وينتهي هذا التربص الذي يعد امتحان الرجولة باختتان جماعي لهؤلاء الشباب وتزويجهم ودخولهم مرحلة الرجولة.

(³⁴) Guides des croyances et symboles d'Afrique, p24

(35) إيزار م ج وكي زيربو:من النيجر إلى الفولتا: ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، ج5، من القرن 16 إلى القرن 18، اليونسكو/مطبوعة درغام واولاده، بيروت، لبنان، 1997 م، ص 379

(³⁶) (Lilyane Prévost et Isabelle de courtilles Guides des croyances et symboles d'Afrique, p24

(³⁷) Lilyane Prévost et Isabelle de courtilles, Op.Cit, p24

(³⁸) إيزار م ج وكي زيربو:المرجع السابق، ص382.

(³⁹) Lilyane Prévost et Isabelle de courtilles, Op.Cit,p25.

(⁴⁰) كانت غنائم الحروب توزع كالآتي: الربع تذهب إلى الملك، وربع يذهب إلى الرؤساء الدينيين، وربع إلى السومونو وهم الصيادون المشرفون على المواصلات النهرية، والربع يتقاسمه الجنود. (إيزار م ج وكي زيربو:المرجع السابق، ص382

(⁴¹) Lilyane Prévost et Isabelle de courtilles,Op.Cit ,p160.

(42) الديولا أو الجولا وهم التجار المتنقلون ينتمون إلى شعب المانكي، وكان لهم دور كبير في نشر الإسلام في أدغال إفريقيا خاصة في منطقة فوتا جالون وفي كونغ في كوت ديفوار حيث توغلوا هناك لتجارة الكولا وكونوا جاليات مسلمة وسط الشعوب الوثنية هناك ،و تأسست عشائر مسلمة سيطرت على الحكم في كونغ وعلى رأسها عائلة واتارا.

(43) م. أبيتبول: نهاية إمبراطورية سنغاي، ص356.

(44) Delafosse(Maurice) ,Haut Sénégal – Niger, tome2, p297.

(45) Ibid,p297.

(46) حول الروايات التي تمجد الزعيم سونسا انظر:

Mary ellen Snodgrass,Encyclopedia of th literature of empire,Library of coggess catalogingin publication Data,1909,p78.

(47) وفي رواية أخرى نجد بأنه قبل فولاكورو حكم ماسا سي كولو(masa sey-colo)

وهذا الاخير لما مات لم يكن لديه اطفال لذلك خلفه اخوه فولاكورو. انظر:

M.E.Age,voyage dans le soudan occidental (sénégal-sénégal),librairie hachet, paris , 1868,p669

(48) Delafosse,Haut S-N,tome2,p298

(49) Ibid,p 299.

(50) تنتسب عائلة دابورا إلى ذرية عائلة دياورا(iawara) حيث ينتسبون لأحد أحفاد زعيم

الدياورا وهو دامون (Daman) والذي كان يلقب ب ساكوني(sagoné) فقد كان لدامون أخ

يدعى دابو(dabo) والذي استقر بمنطقة دياكونتي(diagounté) وبتالي أسس فرع دياورا

(Dabopra) الذي يعد اتحاد غرور دياورا.

Amadou Ba,La dynastie desDiawara(1270 a1754) In sit web :

<http://www.afribone.com/spip.php?article33045>. Consulté le 16-08-2013 .

(51) Delafosse, Op.Cit, p298.

وتقول الروايات الشفوية المحلية التي يرويها الدياورا بان سبب هذه الحرب يعود إلى سنة 1750م حيث كان كل من ملك ديار المنحدر من ذرية الزعيم ساوكني أو دامون وزعيم عشيرة دابورة التابع لمملكته قد وقعا في حب نفس المرأة فتزوجاها الاثنان معا، وكان الأول وهو ملك ديارا قبيحا ولم يكن يزور زوجته إلا ليلا مخافة أن ترى وجهه وترفضه، وفي إحدى الليالي بينما كان الملك عند خليلته جاء خصمه ودخل غرفته بحجة انه جاء لاسترجاع خاتم كان قد نسيه هناك، فقام بإشعال الضوء ليجعل حبيبته ترى وجه خصمه ساكوني الذي ومن شدة الغضب أقسم بأن النار التي أشعلها زعيم دابورا لن تنطفئ أبدا أي أنه أعلن الحرب عليهم.

Amadou Ba,La dynastie des Diawara ,Op.Cit.

(52) M.E.Age, voyage dans le soudan occidental (Sénégal-Sénégal),

Op.Cit, p669.

و نشير هنا الى أن تقاليد البمبارا تنص على انه لا يحق لأبناء الملك وراثته في العرش إلا

بعد وفاة جميع إخوته.

(⁵³)كونياكاري: مدينة وحاضرة تقع في دائرة كايس في(Kayes) جنوب غرب مالي تبعد ب65كم عن مدينة كايس.

(⁵⁴) Delafosse, Op.cit, p299.

(⁵⁵) ibid, p299.

(⁵⁶) Delafosse, Op.cit, p299.

(⁵⁷)M.E.Age, voyage dans le soudan occidental (Sénégalie-Sénégal), Op.Cit,p670.

(⁵⁸) تذكر المصادر الشفوية بان داسي كورو كان اكبر سنا من أخيه سيرابو ولكنه تخلى لأخيه عن العرش إكراما لوالدة هذا الأخير التي أنقذت حياته في إحدى المرات عندما هجم على مملكتهم عدو بغرض ابادتهم فحملت والدة سيرابو ابنها على ظهرها وربطت داسي كورو من غنقه على اساس انه عبد وتمكنت بذلك من انفاذه من المجزرة..Ibid,p670)

(⁵⁹) هو الملك البامانا بيسيغو اسمه ماكورو(Makoro)، وتلقب باسم ماسونغ ديارا حكم ما بين 1792و1808م.

Delafosse(M),Op.Cit,p291

(⁶⁰) M.E.Age, voyage dans le soudan occidental (Sénégalie-Sénégal), Op.Cit, pp670, 671.

(⁶¹) (Mungo park,Vàyage dans l'interieur de l'Afrique faite en 1795,1776,1797,traduit de l'anglais pparis,ar: J. Castera, Paris, sans date, tome1 ,118.

(⁶²) Ibid,pp du136 au 140.